قاضي الكوفة

بقلم : عماد عبد الحميد نصار

□□ إن العدل من اهم الدعامات التي يرتكز عليها بناء الامــة . فإن ضُيّعت هذه الركيزة هلكت الامّــة وحلّ بها غضب الله تعالى . ومنذ القديم قيل : « إنّ الامــة تبقى وتدوم ما دام بساط العدل والإنصاف مبسوطاً . فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم . وبالعدل تصل الحقوق إلى اصحابها ، وترد الامور إلى نصابها ، ويعم المجتمع الامن والاطمئنان ، ويسوده الإخاء والتعاون . ولذا فقد كان تحقيق العدل بين النّاس من اهم اهداف الرسالات السماوية □□

إن تاريخ القضاء في الإسلام مليء وحافل بالكثير من الحوادث والشواهد التي تتجلى فيها عظمة العدالة الإسلامية ، التي تجعل النّاس أمام القضاء عند التخاصم والاختلاف سواء ، لا محاباة لأحدٍ منهم على الآخر ، والتي توجبُ على الخلفاء الجلوس في مجالس القضاء على قدم المساواة مع عامة النّاس ، إن كانت الدعوى يدخل في طرفيها الخليفة .

وإنّ التاريخ الاسلامي فيه من الأدلّة التي تظهر فيها هيبة وجلال العدالة الاسلامية الكثير ، هذه العدالة التي تبسط سلطانها على الغني والفقير ، والكبير والصغير ، وينفّذ حكمها على الخلفاء والأمراء والولاة كما ينفذ على عامّة الأمة .

ولا ننسى أن القضاء على مدى العصور الإسلامية كان مستقلاً ، وكم من مواقف رائعة كان القاضي لا يخضع فيها إلاّ لله عز وجل ، لا لخليفة أو غيره من أصحاب المال والجاه في الدولة الإسلامية .

هذه المواقف إن دلّت على شيء ، إنما تدل على الخلق الرفيع والإيمان العميق الصادق ، والشجاعة في رفع راية الحق وإذلال الباطل مهما عظم ، وغيرها من الصفات التي كان يتصف بها القضاة العادلون في الإسلام .

ولقد شهد التاريخ الإسلامي في كل عصوره الزاهرة قضاةً بلغوا القمة في تحقيق العدل ، قضاة يعجز القلم عن وصف إنصافهم وتمسكهم بمبادىء الحق والأخلاق ، وكانوا ممن قيل فيهم : « لا يخافون في الله لومة لائم » ولقد كان قاضي الكوفة شُريك بن عبد الله النَّخعي أحد هؤلاء الذين قلّما يجود الدهر بمثلهم .

نسبه ... وصفاته ومولده ...

هو القاضي شريك بن عبد الله بن أبي شريك العاصمي النَّخعي ، وهو ينتسب إلى قبيلة النخع ، وهي قبيلة كبيرة من مذحج ، كان يكنى بأبي عبد الله الكوفي .

قال شريك يحدث المستنير بن عمرو عن نشأته : « أدّبتني نفسي والله ، ولدت ببخارى بخراسان ، فحملني ابن عم لنا حتى طرحني عند بني عم لي بنهر صرصر ، فكنت أجلس إلى معلم لهم ، فعلق بقلبي القرآن ، فجئت إلى شيخهم ، فقلت : يا عماه ، الذي كنت تجري علي ههنا أجره علي بالكوفة أعرف بها السنة ، ففعل . قال : فكنت بالكوفة أضرب اللبن وأبيعه وأشتري دفاتر وطروساً ، فأكتب بها العلم والحديث ، ثم طلبت الفقه فبلغت ما ترى » .

وقد كان شريك بن عبد الله عالماً فقيهاً فهماً فطناً ذكيّاً ، وكان رحمهُ الله عادلاً في قضائه ، كثير الصّواب ، حاضر الجواب ، قال

العالم الفقيه
شريك بن عبد الله النخعي

له رجل يوماً : ما تقول فيمن أراد أن يقنت في الصبح قبل الركوع فقنت بعده ؟ فقال : هذا أراد أن يخطىء فأصاب .

كما كان أحد الحافظين لحديث رسول الله ﷺ ، إذ يروى أنّ إسحاق الأزرق الواسطي سمع منه تسعة آلاف حديث .

وقال عنه عبد الله بن المبارك : هو أعلم بحديث بلده من سفيان الثوري . وقال عنه ابن المبارك يوماً ليحيى الحماني : أما يكفيك علم شريك ؟!

وكان ممن يحبون الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويوقّرونه ، فقد كان دائم الإشارة إلى فضائله وذكر محاسنه

وورعه .

فقد حكى الحريري في كتاب « درّة الغواص » أنه كان لشريك القاضي جليس من بني أميّة ، فذكر شريك في بعض الأيام فضائل الامام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال ذلك الأموي : نعْمَ الرجل علي . فأغضبه ذلك وقال : ألعَليٍّ يقال « نعم الرجل » ولا يزاد على ذلك ؟ فأمسك الأموي حتى سكن غضبه ثم قال : يا أبا عبد الله ، ألم يقل الله تعالى في الإخبار عن نفسه ﴿ فقدَرْنا فنِعْمَ القادِرُون ﴾ (المرسلات : ٢٣) ، وقال في أيوب ﴿ إنّا وجدْناهُ صابراً نعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّاب ﴾ (ص: ٤٤) ، وقال في سليمان : ﴿ ووهبْنا لداوُدَ سُليْمان نعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّاب ﴾ (ص: ٣٠) ، أفلا ترضى لعلي بما رضي الله به لنفسه ولأنبيائه ؟ فتنبّه شريك عند ذلك وزادت مكانة ذلك الأموي عنده .

أمّا القاضي شريك بن عبد الله فقد ولد سنة خمس وتسعين للهجرة في بخارى بخراسان ، ويقال إنّه قدم بغداد مرات عديدة وحدّث بها .

ولاية القضاء ...

كان شريك بن عبد الله لا يحب ولاية القضاء ، وكان يمتنع حين يعرض عليه أن يتولى مجلس القضاء ، ويعزف عن أن يتحمل تبعته ، إدراكاً منه لعظمة المسؤولية وتبعات القضاء ، وإدراكاً منه بأن القاضي مهما يكن ، يبقى إنساناً له إحساسه ، وميوله وعواطفه ، التي ربما تعصف به وتدفعه إلى الظلم والبغي والخروج عن الصواب ، ولهذا حذّر الله سبحانه وتعالى من هذا الأمر ، قال تعالى : ﴿ يا داوُدُ إنّا جعلْناكَ خليفةً في الأرْض فاحْكُمْ بيْنَ النّاس بالحَقّ ولا تتّبع الهَوى فيُضلّكَ عنْ سبيل اللّه ، إنّ الّذين يَضلّون عن سبيل اللّه لهُمْ عذابٌ شديدٌ بمَا نَسوا يَوْمَ الحِساب ﴾ (ص: ٢٦) ، ويقول تعالى أيضاً : ﴿ يأيُّها الّذين آمنُوا كُونُوا قوّامِينَ للّهِ شُهداءَ بالْقسْط ولا يجْرمنّكُمْ شنآنُ قوْمٍ على ألاّ تعْدلُوا اعْدلُوا هُوَ أقْربُ للتّقْوى ﴾ (المائدة : ٨) .

قاضي الكوفة

العالم الفقيه شريك بن عبد الله النخعي

ويروى أنَّ أبا جعفر المنصور دعا شريكاً النخعي ليوليه القضاء ، وقال له : قد ولَّيتك قضاء الكوفة . قال : يا أمير المؤمنين ، إني إنما أنظر في الصلاة والصوم ، فأما القضاء فلا أحسنه . قال : اذهب وإلاَّ وجَّهتك إلى « اكشام والطازبند » ، قال : يا أمير المؤمنين ، إني لا أحسنه . قال : اذهب فأنفذ ما أحسنت واكتب إلي فيما لا تحسن .

وقال اسحاق بن عيسى : لمَّا ولَّى المنصور شريكاً قضاء الكوفة ، أتى شريك أبي فقال له : استعفِ لي أمير المؤمنين . فقال له : اني لأعزل من ذاك ، إن أمير المؤمنين لا يُردُّ عن عزماته . فلمَّا توفيَّ أبو جعفر المنصور ووليَّ المهدي ، قال أبي لشريك : إنك كنت سألتني أن أستعفي لك أمير المؤمنين ، فأبيت عليك ، وأمير المؤمنين أليَنُ جانباً واحرى أن يُجيبنا إلى ما نسأله ، فإن شئت استعفيته ؟ فقال شريك : أمَّا الآن فإني أكره شماتة الأعداء ، وكان القاضي شريك يتمثل بهذا البيت :

تعدو الذئابُ على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري

وكثيراً ما كان صاحبنا يتمثل بأبيات زهير بن أبي سلمى التي يقول فيها :

وكم ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيـادتُـهُ أو نقصُـهُ في التَّكلم
لسـان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلاَّ صورة اللحم والدم

نصـــــــير المظلومين ...

وحتى نرى الموقف العظيم الذي وقفه القاضي شريك مع أصحاب الزعامة والجاه في الدولة العباسية أيَّام المهدي ـ وكم له من مواقف أخرىَ غراء ـ وحتى نرى العدل متمثلاً في نزاهة القاضي ، ووقوفه مع الحق دائماً امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (الشورى : ١٥) هيَّا بنا نطو القرون ونعود إلى الوراء لننتقل إلى مجلس قضاء الكوفة ، لنرى قاضيها العالم الفقيه الأبي العادل شريك بن عبد الله النخعي الذي طالما سمع الجميع بنزاهته وعدله ، وطالما عرفوه نصيراً للمظلومين ، لنراه في مجلسه ينظر في المظالم التي تأتيه ، فيحكم فيها بالفصل والعدل ولا يخشى في الله لومة لائم ، إنما يلتزم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .

وبينما هو في مجلسه ويكاد يفرغ من آخر قضية بين يديه ، إذا بامرأةٍ تدخل عليه وتقول له : أنا بالله ثم بك يا نصير المظلومين . فنظر إليها شريك وقال لها : من ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين المهدي . قال القاضي : وكيـف ؟ قالت : كان لي بستان على شاطىء الفرات ، وفيه نخل وزرع ورثته عن أبي وقاسمته إخوتي ، وبنيت بيني وبينهم حائطاً ، وجعلت في البستان رجلاً فارسياً خبيراً ، يحفظ النخل ويقوم به ويغرس في البستان ، ومضت أعوام تحسَّنت فيه حالة البستان نتيجة دأب الفارسي على إصلاح شأنه ، وكنت خلال هذه الأعوام أقبض غلَّة البستان ، وأنفق منها على نفسي وأولادي ، واشترى الأمير موسى بن عيسى بساتين إخوتي ورغب في أن يشتري بستاني ، فساومني ورغَّبني ، فلم أبِعْهُ ، فغضب الأمير موسى من ذلك ، فهدَّدني وتوعدني ، ولكنني لم أخش تهديده ، فلما كانت هذه الليلة ، بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط ، فأصبحت لا أعرف حدود بستاني من بساتينه ، واختلط نخلي بنخله وزرعي بزرعه .

فكتب القاضي إلى الأمير هذا الكتاب :

« أمَّا بعد ، أبقى الله الأمير وحفظه ، وأتم نعمته عليه ، لقد جاءتني امرأة فذكرت أنها فلانة بنت فلان ، وأنَّ الأمير اغتصب

■ من عظم أمر الله ، أذل الله له عظماء خلقه .

■ يروى أن اسحاق الأزرق الواسطي سمع من شريك تسعة آلاف من أحاديث رسول الله ﷺ .

■ **لقد شهد التاريخ الإسلامي قضاة بلغوا القمة في تحقيق العدل .**

■ **كان شريك قاضي الكوفة أحد القضاة الذين قلما يجود الدهر بمثلهم .**

بستانها أمس ، فليحضر الأمير مجلس الحكم السّاعة ، أو يوكل وكيلاً ، والسلام » .

وقال : يا غلام ، أحضر طينة فأحضر ، فختمها وقال : اذهب بكتابي هذا إلى الأمير موسى بن عيسى حتى يحضر معك ، فأخذه الغلام وسار به إلى قصر الأمير موسى وسلّمه إيّاه وقال : قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه .

فلما قرأ الأمير الكتاب إربدّ وجهه وعلاه الغضب ، وقال للغلام : اذهب أولاً وادعُ لي صاحب الشرطة . فذهب واستدعاه ، فقال له الأمير : امض إلى شريك القاضي وقل له بلساني : يا سبحان الله ! ما رأيت أعجب من أمرك ! كيف تنصف على الأمير امرأة حمقاء لم تصح دعواها ؟ قال صاحب الشرطة : وهل حكم القاضي فأنصفها ؟

فقال الأمير : حسبها من الإنصاف أن أقف معها في مجلس القضاء .

فقال : لو تفضّل الأمير فأعفاني من هذه المهمة ، فالقاضي - كما تعلم - صارم . .

فقال الأمير غاضباً : امض ويلك لا تتردّد .

فخرج صاحب الشرطة من عند الأمير حيران في أمره ، لا يدري كيف يتصرف ، ثم حسم الأمر أخيراً بقوله : ولكن ماذا عليّ إن بلّغت رسالة الأمير للقاضي ؟ ولكن معرفته الصحيحة بالقاضي جعلته يتردد ، وقال : لكن القاضي سيتهمني بممالأة الأمير ، وبالتطفل على أمر علم به من قبل . عندئذٍ دعا صاحب الشرطة غلمانه وقال لهم : اذهبوا واحملوا إلى الحبس بساطاً وفراشاً وغطاءً وطعاماً وشراباً وما تدعو الحاجة إليه ، ثم مضى إلى شريك ، فلما وقف بين يديه بلّغه رسالة الأمير في تلطف وكياسة لأنه يعرف أن ما قام به ليس مشروعاً .

فقال له شريك : لقد أرسلت إلى الأمير حاجباً ولم أرسلك ، ثم انني طلبت منه أن يحضر بنفسه ، فبعثك تحمل رسالته التي لا تغني عنه شيئاً في مجلس القضاء ، فما أنت وذاك ؟ ونادى بغلام المجلس وقال له : خذ بيده وضعه في الحبس ، فقال صاحب الشرطة بعد ما سمع قرار شريك : والله لقد علمت أنك تحبسني ، فقدّمت ما أحتاج إليه إلى الحبس .

وبلغ الأمير موسى بن عيسى الخبر ، فاستشاط غضباً ووجّه حاجبه إلى القاضي ليقول له على لسان الأمير : رسول أدّى رسالة كلّفه الأمير بها ، فأي شيء عليه في ذلك حتى تحبسه ؟ ولم يكد الحاجب يبلغ القاضي رسالة الأمير حتى أمر بحبسه مع سابقه .

وما لبث الأمير أن عَرَف الخبر ، فلما صلى العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة وسَراتها من أصدقاء القاضي شريك فلما جاؤوه أعلمهم بالأمر وبما حدث لرسوليه في حضرة القاضي ، وقال لهم : اذهبوا إليه وأبلغوه سلامي وأعلموه أنّه استخفّ بي وبرسوليّ وإني لستُ كالعامة ولا أنا من العامة ، وإنه يعلم ذلك .

فذهبوا كلّهم إلى شريك وهو جالس في مجلسه بعد صلاة العصر ، وبلّغوه مقال الأمير ، وزاد كل واحد منهم شيئاً من لدنه ليستميل به القاضي ويترضاه ، فلمّا انقضى كلامهم . قال لهم : مالي أراكم جئتموني في غثرة من النّاس تكلمونني في أمر لا أقدر فيه على غير الحق ؟ وهل وضع القضاء للفصل بين العامة فحسب ؟ أما انّه لا فرق في العدل بين العامة والخاصة . ويحضرني في هذا المقام قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه « الإسلام ساوى بينكما » الذي قاله لجبلة بن الأيهم الذي لطم رجلاً من العامة أثناء الطواف حول الكعبة ، لأنه داس على إزاره ، وقضى عمر للرجل أن يلطم جبلة ، فقال عندها جبلة بن الأيهم : أنا أمير وهو سوقة . فقال له عمر كلمته المشهورة

قاضي الكوفة
العالم الفقيه شريك بن عبد الله النخعي

والإسلام ساوى بينكما »، ولنعد نتابع أحداث القصة ..

فنادى شريك بعد ذلك : مَنْ هنا من فتيان الحي ؟ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال لهم : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل وليمض به إلى الحبس . والتفت إلى مبعوثي الأمير وقال لهم : إنكم فتنة وجزاؤكم الحبس . فدُهش الوسطاء أيّما دهشة من قرار القاضي وقالوا جميعاً : أجادٌّ أنت يا شريك ؟! قال : أجل، حتى لا تعودوا لمساندة ظالم، ومضى الفتيان بهم إلى الحبس، فلما بلغ الأمير موسى بن عيسى الخبر كم كانت دهشته حينذاك، فصمم على عمل يخرج به أصحابه من الحبس، فلما كان الليل، ركب الأمير في غلمانه وفرسانه إلى باب السجن، وفتحه عنوةً وأخرجهم كلهم، فلما كان من الغد، جلس شريك للقضاء، فجاء السجان وأخبره بالأمر، فدعا بِقِمَطْرِ كتبه فختمه، وبعث به إلى منزله، وقال لغلامه : هات متاعي كله والحقني ببغداد . والله ما طلبنا هذا الأمر (أي القضاء) من بني العبّاس، ولكن هم الذين أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا أن نكون فيه أعزّة أحراراً، فأما قد ضيّعوا ما ضمنوه لنا فلا سبيل إلى البقاء في مجلس القضاء، وأداء الأمانة، ومضى إلى قنطرة الكوفة، يؤم بغداد، وكان عيون الأمير قد أسرعوا إليه بالخبر، فخاف وذُعِرَ، وأسرع في موكبه ولحق بالقاضي، وجعل يناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله - أصلحك الله - تثبّت وانظر قليلاً . أتحبس إخواني وأعواني بعد أن حبست رسوليّ ؟

فقال شريك بعد أن لحق به الأمير وقال له ما سبق : نعم، لأنهم مشوا لك في أمرٍ ما كان لهم أن يمشوا فيه .

فقال الأمير : لا تثريب عليهم، لأني أنا الذي أوفدتهم إليك .

فقال : قبولهم هذه الوفادة تعطيل للقضاء، وعدوان على العدل، وعونٌ على الاستهانة بحقوق الضعفاء، ولست براجعٍ عن غايتي أو يُردوا جميعاً إلى السجن، وإلاّ مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فاستعفيته من قضاء الكوفة، بل من القضاء كلّه، فخشي الأمير عاقبة الأمر، وأسرع بردِّهم إلى الحبس في كبرياء مجروحة، وجاء السجان وأخبر شريكاً بردِّهم، ثم لحق به الأمير وقال : قد رددتهم فعد إلى مجلسك .

قال شريك : أمّا الآن فنعم . ثم أمر أعوانه أن يأخذوا بلجام دابته إلى مجلس الحكم، وجلس القاضي في مجلسه، واستدعى المرأة المتظلمة، فجاءت، وقال لها : هذا خَصْمُكِ قد حضر .

فقال الأمير موسى : أما وقد حضرت، فأرجو أن تأمر بإخراج المسجونين .

فقال شريك : أمّا الآن فلك ذلك . ثم سأل الأمير عما تدعيه هذه المرأة، فقال : صدقت .

قال : إذن تردُّ ما أخذت منها وتبني حائطها سريعاً كما كان .

قال الأمير : أفعل ذلك .

فسأل شريك المرأة : أبقي لك عليه شيئاً ؟

قالت : بيت الرجل الفارسي ومتاعه .

فقال الأمير : ويُرَدُّ ذلك كلّه .

فقال شريك للمرأة : أبقي لك عليه شيء ؟

قالت : لا، وبارك الله عليك وجزاك خيراً ..

فقال لها عندئذ : قومي، فقامت من مجلسه وذهبت .

فلمّا فرغ شريك قام وأخذ بيد الأمير موسى، وأجلسه في مجلسه وقال : السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء ؟

قال : أي شيء آمر ؟ وضَحِكَ ..

فقال له شريك : أيها الأمير ذاك حق الشرع وهذا القول الآن حقُّ الأدب ..

فقام الأمير وهو يقول : من عظّم أمر الله، أذلَّ الله له عظماء خلقه .

وهكذا يجب تقدير القاضي واحترام أحكامه والرضى بها، لأن هذا الحكم الذي أصدره شريك هو العدل، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء : ٦٤) .

وفاته ..

توفي القاضي شريك - رحمه الله - يوم السبت مستهل ذي القعدة سنة سبع وسبعين ومائة بالكوفة، بعد أن عمّر نيفاً وثمانين سنة، رحم الله شريكاً لقد كان ممن صدق فيهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (النساء : ١٠٥) .

وبعد، فأرجو أن اكون قد وفقت في هذا المقال إلى بيان موقف عظيم وقفه أحد قضاة الإسلام، وكم من مواقف مضيئة ضربها الكثير من القضاة العادلين دفاعاً عن الحق والعدل اللّذين كانا من أهم ما دعت إليه الرسالات السماوية .